

بنية النص الوصفي

في رواية "زينب" لمحمد حسين هيكل*

د بوشفرة نادية

جامعة مستغانم

تعد رواية "زينب" من الروايات المشهورة في أدبنا الحديث وذلك لسببين بارزين: أولهما يتمثل في كونها فاتحة الباب لصدور وانجاز روايات عربية في تلك الفترة، والآخر يتعلق بصاحبها محمد حسين هيكل الذي استطاع بلغته الراقية وأسلوبه الخاص في التصوير، أن يجعل من هذا النص الإبداعي مصدر اهتمام للأدباء والنقاد على حد سواء.

تنقسم الرواية إلى ثلاثة أقسام، مترابطة فيما بينها بروابط منطقية وزمنية متينة، ميّزها الروائي بالكتاب الأول والذي تطرّق فيه إلى زينب وعزيزة - ابنة عمّه - قبل الزواج وعلاقته العاطفية الطيبة بهما، فالكتاب الثاني الذي قدّم فيه حياة زينب الزوجية وما أصابها من قلق وتعاसे لزوجها بحسن لا بإبراهيم، الذي كانت تكنّ له مشاعر حب صادقة ثم الكتاب الثالث والآخر الذي تعرّض فيه لحالة الضياع والفناء، لما عمل القدر عمله فلم تلق شخصيات الرواية السعادة التي كانت تنشدها ولا الأمل في تحقيقها، نهايتها حزينة تعبّر عن مآل زينب وهو الوفاة بسبب مرض السل القاتل، وعن وحدة زوجها حسن الذي كان متفانيا في رعايتها وحريصا على إرضائها قبل مماتها. ومآل حامد - السارد - المعبر عنه بالضياع للبحث عن سرّ الوجود والكشف عن مجاهل الروح. وهذا إبراهيم الذي رحل لقضاء الخدمة العسكرية وليعيش خادما بالسودان، تاركا أهله وذويه. وعزيزة العزيزة إلى قلب حامد والذي يحمل ودها من أيام الطفولة، تلقى هي الأخرى مصيرا مجهولا مع زوج لا تعرف عنه شيئا..

وطبعا، وأمام هذه الأحوال الرهيبة وهذه المفاجآت المدجّجة بالبؤس واليأس والشقاء، تعيش عائلات تلك الشخصيات عذابات النفس وتآنيب الضمير والقلق اللامحدود، ونخص بالذكر أهل زينب وعائلة حامد وإبراهيم وحسن.

تقلّ الأحداث في هذه الرواية لأنّ الطابع الوصفي هو الغالب، حيث يأتي تركيز الروائي على تصوير المناظر الطبيعية والشخصيات ووظائفها، حتّى لتكاد المشاهد فيها تصل إلى نسبة 70% من مجمل النصّ الروائي، ويعود السبب في اعتقادنا إلى أنّ صناعة الرواية لم تكن معروفة بعد، وكيفية تشبيك خيوطها لم تكن مألوفا وأنّ حركية الشخصيات لم تصل إلى حدّ الاحترافية والفاعلية.. إنّها قصة قصيرة طويت في قصة طويلة، غلب عليها الوصف، فأصبحت رواية.

نهتم في هذه الدراسة ببنية النص الوصفي في رواية زينب وقد وقع اختيارنا على شخصية زينب لأنها عنوان الرواية، ولأنها شغلت معظم صفحاتها، فهي مدار اهتمام أهل القرية لما تتسم به من صفات حسنة خلقا وخلقا...

إن البحث في ماهية الوصف فهو بحث شاق وقاس، ذلك لأنه يتعدى تعريفه نظريا، نقول فليب هامون: "ليس للوصف قانونا نظريا حقيقيا يصلح للتعريف به أو تمييزه، لذلك يبدو غير قابل للتعريف، أولا ومن غير شك، لأنه من الصعب إعطاء قانونا دلاليا: بخلاف المجازات الإنشائية، فهو لا يغير من اتجاه معنى حقيقي إلى معنى مجازي، ومن معنى أول إلى معنى ثانٍ ولا يبدل أي نظام عادي إلى بلبله فنية ولا يخدم لا الدال ولا المدلول..." (1).

يشير هذا التعريف إلى العمومية والتجريد لا إلى الخصوصية والتحديد في الوصف، ذلك لأنه زبقي الحركة وهلامي الشكل، يتملص من جملة الأشكال الأدبية ولا يثبت بخطاب معين، فهو أحد العمليات الكلامية الشفوية أو المكتوبة، التي تخص عوالم مختلفة من التعبير الأدبي وغير الأدبي، إذ أننا نجد في علم الآثار والأنثروبولوجيا وفي علوم الاجتماع والنفس والجغرافيا وأيضا في علوم الطب والرياضيات والفيزياء والكيمياء، "فقواعد اللعبة هي في كل مرة مختلفة، وحتى ولو كانت هذه الأشكال للوصف متعددة، فإنها بالطبع تجتمع في "وجه القرابة" الذي يحيل إلى درجة أدنى، هو ذلك الضرب للواقع المشترك، لكن ما وراء هذا الضرب نجد أن الاستراتيجيات الوصفية الخاصة بكل هذه السجلات تختلف في وسائلها كما تختلف في أهدافها" (2).

بيد أن هذه الضبابية سرعان ما تزول لما يأتي التأكيد على أنه تجسد في الرواية بشكل أوسع يصل حد العجب، فقد استعمل لغاية جمالية توحى بزخرف الصنعة الروائية التي يتلاعب بها الروائي، لدرجة الاحتراف في خلق التعبيرات المنمقة والإبداع في التصوير الفني الدقيق ببراعة كاملة في اختيار ألفاظ الوصف، كما وجدنا مع تصوير هيكل للمناظر الطبيعية للريف المصري Topographie وللمظاهر الخارجية للشخصيات Prosographie ووصف لذهنياتها Ethopée ولإثنين معا Portrait ولتوليفة وصفين متشابهين أو متوازيين للموضوعات أو الشخصيات Parallèle وحتى مع تعامله لإبراز وصف حي ومتحرك للأفعال والأهواء والظواهر الفيزيائية Tableau.

يوجد الوصف مبعثرا وموزعا على جوانب النص الروائي المعطى ولكي نجتمع شمله ينبغي أن نجتمع شتاته، في إطار عملية قائمة أساسا على وضع ترسيمات لمعرفة البنيات التعاقدية المتواصلة أو المتطورة في النص. وهي عملية تسهل فعل القراءة لدى المتلقي وتتيح له فرص إدراك المقطوعات الوصفية في تجلياتها النصية وذلك بإعمال

الفكر في تلقي النص كصورة ذهنية للواقع الذي يمنحه له ومنه نحاول بناء معرفة بمقتضى ربط العناصر الجزئية بوحدة كيان كلية لذلك النص.

قدم جون ميشال آدم و أندري بوتى جون نموذجا نظريا ألسنيا للوصف، حيث استنبط من تلاحم قضيتين أو أكثر "موضوعة" Thème شاملة لعدد من الموضوعات الفرعية Sous-thèmes، آخذين في الحسبان ضرورة إقامة علاقة عقلية، تنطلق من الكل إلى الجزء، على أساس كل تمثيل وصفي جديد للقضايا السابقة (3).

نمثل الموضوعة في روايتنا بالموضوعة العنوان وهي "زينب"، ما دامت الشخصية البارزة والأكثر جاذبية، فهي محورية لأنها تحمل قيما ايجابية متمثلة في المبادئ والأخلاق وما وافقهما من السلوك الحسن. هي الكل الذي نود تحليل صورته إلى موضوعات فرعية، تكمن في الأجزاء أو العناصر المكونة له والتي تكتسب ملكيات Propriétés خاصة، تميزها في اللون والشكل والحجم والعدد... لنعبر عن بنية ترجية لمجموع القضايا الوصفية الصغرى المؤلفة وبحكم المنطق الدلالي للإطار العام الذي يصور موضوعة "زينب".

تعتبر الموضوعة- العنوان النواة الوصفية التي تقعد وترسي المسار التدرجي للوصف، لأجل تسجيل معرفة بالنص المعطى. تأتي هذه الموضوعة إما مصرحا بها في بداية الخطاب أو في نهايته، لكنه نادرا ما تتضمن في طياته، وفي الحالتين، يؤتى به لتوجيه التأويل وتثبيت مقروئية الملفوظ (4).

إننا نرسخ الموضوعة- العنوان بهدف إرساء Ancrage اسم للغة ومنه إقامة بناء ثقافي مسبق، في المقابل تعقد عملية معاكسة لفعل الإرساء وهي الإلحاق Affectation التي يقصد بها "إنتاج ضروب للمعنى" (5)، فهو حل لضرب من اللغز أو الشك أو الغرابة، ما يسمح لنا بالحديث عن الانتشار النصي المحقق للتلاحم الدلالي، الذي يصادف أن يستوقفنا إما في الإرساء أو في الإلحاق.

تحثنا دراسة البنية الخاصة للوصف على ضرورة التعامل مع القضايا الوصفية بغرض إحصاء مظاهر شخصية زينب، وذلك للتعريف بها جسديا من خلال المواصفات التي تتسم بها أطرافها العلوية والسفلية. فمن ذكر دقيق للامح الوجه من العينين والخدين والحاجبين إلى الصدر والخصر والأرداف والساقين، وصولا إلى التصوير العام لشكلها وما يعرف عنها من السمعة الطيبة والسيرة الحسنة.

قبل التعرض لجملة المواصفات التي ذكرها السارد لزينب، تجدر الإشارة إلى أنه توجد معطيات وصفية أخرى، تضاف إلى الإرساء والإلحاق، من مثل التمثيل Assimilation والمقصود به تقريب شبكات تخص هيئات لموضوعين، يكونا في البداية مختلفين، وبالقيااس يحدث التمثيل مؤقتا بين موضوع إشكالي - والذي يبحث من وراءه

عن بنية للمعرفة- وموضوع معرف ومعلوم، وعلى التقيض، يجوز أيضا القول بالتمثل حينما تقلب عملية القياس و يأتي الانتقال من الموضوع المألوف والمعلوم إلى الموضوع الإشكال (6). ويكون التمثل إما بإيراد مقارنة أو استعارة أو نفي، وهي مؤشرات لإعادة صياغة في التعبير ولتعديل بؤرة الموضوعة- العنوان.

كما يوجد التّمظهر Aspectualisation وهو المعنى بتقطيع أجزاء الموضوع و التفصيل في خصوصياته، بإحصاء اللون والبعد والعدد والشكل والقامة. يكتسب التّمظهر أهمية عظمى، لما يشيّد الوصف سلماً قيميا يعدّد فيه مراتب و درجات الصّفات والتّبعوت ومدى تطوّرها في النصّ الوصفي، لأنّها تشدّ انتباه القارئ وتثير فضوله في معرفة ما لهذه الشّخصية من مميّزات تسمها عن الشّخصيات الأخرى..؟

ومعطى آخر هو التّموضع Thématisation وهو مصدر الانتشار الوصفي، ويقصد به ذلك الذي يحقق موضوعة جديدة بمعنى موضوعة فرعية لقسم جديد من الموضوع المراد وصفه (7). يتحدّد التّموضع ويتعلّق بالموضوعات المتشظيّة Thèmes éclatés من أجزاء أو عناصر ناجمة عن الموضوعة- العنوان والتي أصبحت عبارة عن موضوعات فرعية جديدة، هي إمّا من الدّرجة الأولى أو الثّانية أو الثّالثة...

كما نجد مسند التّموقع Prédicat de situation في العملية الوصفية مبرزا من خلال مقولات الفضاء لتحديد موقع ومكان الموضوع وبمقولات للزمن تشير إلى المدى التاريخي وتسمح بوضع ذلك الموضوع في علاقة كنائية مع موضوعات أخرى ثانوية أو خارجية أو متجاوزة، وهي حينئذ تلحق إمّا بصفة مباشرة بموضوعة- العنوان أو بصفة غير مباشرة من خلال تموضعها الظاهر في وحدة تقع في الصّف الثّاني أو الثّالث أو الرّابع. من التّمفصل الفرعي للأجزاء والتّموضعات (8).

بهذا التحليل النظري، نصل إلى الممارسة التطبيقية لتبيان نظام البنية الوصفية لشخصية زينب والذي وجدنا السارد قد وصفها وهي في أوج تألقها وشبابها - قبل الزواج طبعاً - في صفحات معدودة من الرواية، حيث يقول عنها: "قابلتني فأخذ بعيني جمالها وبهرتني منها عيون نجل و خلود متوردة في لون قمحي جذاب وجسم خصب وقوام غضّ وخصر دقيق وبنان رخص ومنطق عذب ونظرات تسيل لها النّفس" (ص 228) ثم يضيف قائلاً: "و هل رأيت في حياتي كعينها، تقوّس فوقهما حاجبان أشدّ نفاداً من السّهم وعلى صدرها ثديان يوحيان رغماً عن الثّوب الذي يسترها بكلّ ما تكنّه فتاة في ثديها من الشّباب والرّغبة وخصر رقيق فوق أرداف تزين عبل ساقها ومع ذلك نظرات تشفّ عن قلب طاهر مليء حباً..". (ص 233) ويصفها أيضاً في الأخير: "إنّها فتاة بليغة الخلق والتكوين، قوية الجسم، يفوح منها الشّباب" (ص 239).

تشكّل هذه المقاطع تجمعا خطابيا لنص وصفي مداره زينب التي أرسيناها موضوعة للعنوان حيث يتفرّع منها مركّبان هما لأجل إقامة علاقة -للمثل أو التّموقع- وللتّمظهر، وجب تحليلهما كما يلي:

1. الوجه: وقد تضمن الأجزاء الوصفية الآتية:

جزء 1: وهو تموضع أول للعيون ويفيد تمظهرها في شكل "نجل" وينحل إلى تموضع فرعي جديد خاص بالنظرات وهو تمثل للاستعارة، فهي نظرات تسيل لها النفس لما تحدثه من لذة وممتعة لناظرها هذا من جهة، ومن جهة أخرى، فإنها نظرات تشف عن قلب طاهر مليء بالحب، هي إذن نظرات من الخارج فاقنة لمن لا يعرفها، لكنها تشهد للفتاة بنبيلها وعفتها.

جزء 2: تموضع ثان للحدود يقيم فيه علاقة لمسند التمثل بالمقارنة في قوله "متوردة" ولتمظهر من حيث اللون القمحي وشكله الجذاب.

جزء 3: تموضع ثالث للحاجبين، يقيم فيه علاقة لتمثل بالمقارنة بينهما وبين نفاذ السهم ولتمظهر من حيث شدتهما.

2. الأطراف: واحتوت على الأجزاء الوصفية التالية:

جزء 4: وهو تموضع رابع للصدر الذي يقصد به التدين ويقيم فيه علاقة لتمثل استعارة "الشباب والروعة" الموافقة للنضارة والبروز.

جزء 5: تموضع خامس للخصر الذي يتمظهر من حيث الشكل دقيقا ورقيقا.

جزء 6: تموضع سادس للبنان - الأصابع - ويقيم له تمظهرها من حيث الشكل "الرخص" فهي رقيقة وجميلة.

جزء 7: تموضع سابع للمنطق الذي لا يملك هيئة فيزيائية ومع ذلك فالكاتب يقيم له علاقة كناية بقوله "عذب" قاصدا من خلاله الجمال الروحي للفلاحة ولرشاقتها وعذوبة التعامل معها.

جزء 8: تموضع ثامن للأرداف سجله لغرض تموقع مكاني في الأعضاء، حينما ربط بينه وبين الخصر من جهة، وبينه وبين ساقها من جهة أخرى.

جزء 9: تموضع تاسع للساقين والذي يوحي بتمظهر في الحجم لقوله "عبل".

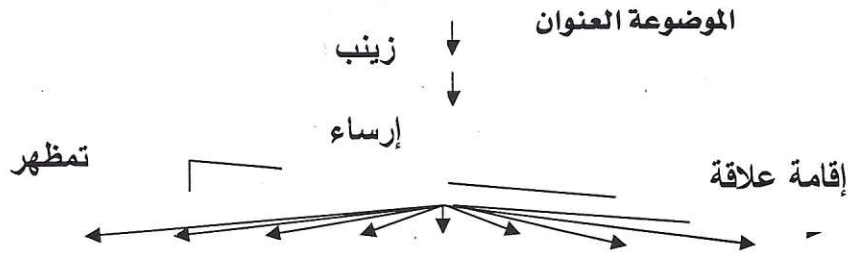
ثمّ عود إلى بدء، يرسي الروائي زينب من حيث "الكل"، بمعنى الصورة الشاملة التي يلتقطها لها، فيعيد تأكيد وصفها من جديد في شكلها الكامل من حيث الجسم والقوام:

الجسم: تموضع عاشر، يحدث فيه تمظهرها من خلال التعبير عنه تارة بالخصب وتارة أخرى بالقوة.

القوام: تموضع ما قبل الأخير، يجلي فيه تمظهرها للتعبير عنه بالغض.

وأخيرا يستجمع كل تلك الأجزاء في تموضع أخير وهو أعمّ، خاص بالفتاة، يقيم فيه تمظهرها في شكلها "البديع" خلقا وتكوينا.

نوجز هذا التحليل في الترسيم الآتية:



البديع خلقا وتكوينا - البنية الوصفية لشخصية زينب-

بهذا التحليل نصل إلى ضرورة التأكيد على التعامل مع البنية الوصفية وبشكل عام نقول الوصف الذي يشكل إحدى العناصر الأساسية في النص الأدبي وعلى حد قول فرانسييس واي: "من لا يستطيع أن يصف، لا يستطيع أن يؤلف.. لما نصف فإننا نرسم ولما نرسم فإننا نشكل صورا" (9).

الإحالات

- * محمد حسين هيكل، زينب، مناظرو أخلاق ريفية، موفم للنشر والتوزيع، الجزائر، 1999.
- .Philippe Hamon, Introduction à l'analyse du descriptif, Classique hachette, 1 Paris, 1981, p 9.
- .Jean Pierre Olivier, Observation et description en socio anthropologie, in 2 Pratiques de la description, Coll Enquête n°=3, Ed EHSS, Paris, 2003, p 13.
- .Jean Michel Adam, André Petit Jean, Le texte descriptif, Nathan, paris, 2^e ed, 3 1991, P 100.
- .Ibid, P111.4
- .Ibid, p115.5
- .Ibid, P128.6
- .Ibid, P130.131.7
- .Ibid, P134.8
- .Francis wey, Remarques sur la langue française, Didot, Paris, 1845, 2^e Volume, 9 p 404, in P.Hamon, Introduction à l'analyse du descriptif, p 25.